

الإيمان والمعرفة في القرآن



قال تعالى في كتابه العزيز: (إِنَّ زَمَّامَ الْوَعْدِ مِنْهُمْ إِنْ يَدْرَأُونَ إِلَّا نَجْمًا كَالَّذِينَ إِذَا دُكِرَ بِهِ تَوَلَّوْا كَلَّا وَعَدُوهُمْ وَمَا لَهُمْ لَهَا بِعِلْمٍ وَأُولَئِكَ هُمُ الرَّكَّابُ) (الأنفال/ 2). إن المؤمنين هم هؤلاء، ومن خلال أداة الحصر (إنما)، فإن من لا يتصف بهذه الصفات فليس مؤمناً في عمق الإيمان. فأن تؤمن بالله، هو أن تتجلى عظمة الله في نفسك في كل مواقع العظمة في صفاته، وفي كل آفاق العظمة في ذاته. وأن تؤمن بالله، يعني أن يفتح فكرك وقلبك وإحساسك على أنعم الله، لتتحمس ارتباط وجودك به في كل تفاصيله، من خلال ارتباطه بالنعمة التي أسبغها الله عليك. وقد عبّر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن هؤلاء المؤمنين الذين يعيشون هذا الإحساس بالوجل أمام الله من خلال الشعور بعظمة الله، حيث يقول: «عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم»، فلقد تمثلت عظمة الله في النفس، بحيث ملأت كل وجدان الإنسان، فلم ير أحداً عظيماً قبالة عظمة الله سبحانه وتعالى، بل عندما دخل في مجال المقارنة، رأى أن الآخرين صغار صغار. فإذا كان الله يحصر المؤمنين في هؤلاء، فعلينا أن نعمل على تربية عظمة الله في نفوسنا، بالتفكير في مواقع العظمة وفي مواقع النعمة، وفي الإحساس بالفقر المطلق فينا إلى الله الغني المطلق عننا، وأن نمارس ذلك ذكراً وعبادةً وفكراً وما إلى ذلك.

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)، إذا تليت عليهم آياته الكونية وآياته القرآنية، بحيث إن إيمانهم يتحرك ويتطور ويزيد من خلال زيادة المعرفة، فكلما عرفت الله من خلال آياته أكثر، عرفت عظمته على أساس ما تفهمه من أسرار هذه الآيات أكثر، وهذا ما عبّر عنه الله تعالى في قوله: (وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السمَّاءِ وَالأَرْضِ) (آل عمران/ 191) وينتهون إلى النتيجة (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ) (آل عمران/ 191) فنحن نستوحى من ذلك عظمتك ونستوحى عبادتك (فَقَدِمْنَا عَبْدًا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (آل عمران/ 191). وهكذا (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ) آيات القرآن، من خلال النور الذي يشرق من كل آية (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ) (المائدة/ 15) (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة/ 257) وهو الهدى، فعندما تلت عليهم آياته، فإنها تزيدهم إيماناً، لأنها تزيدهم معرفةً بالله سبحانه وتعالى، ومحبةً له وخوفاً منه. من هنا جاء القرآن وجاءت السنة الشريفة بالحث على قراءة القرآن

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلاَى قُلُوبِ أَفُقَالُهَا) (محمدؑ د/ 24)، وهكذا نلتقي بالأحاديث الواردة في فضل قراءة القرآن، لأنّ العقيدة ترتكز على ا في توحيده، وجاء القرآن من أجل أن يعمّق توحيد ا في نفوس الناس.

لذلك، فلو قرأنا القرآن كلّهُ، لرأينا العنوان الكبير الذي يحكم كلّ سورة وكلّ آية هو «توحيد ا»، إمّا بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، فقيمة القرآن أنّه يفتح عقولنا على ا من خلال ما في القرآن من موعظة ومن وعي ومن انفتاح ومن حركة نحو التفكير في آفاق ا سبحانه وتعالى. وهذا ما يدفعنا إلى أن نقرأ القرآن لنتثقف به، ولتكون لنا الثقافة التوحيدية في تصوّرنا لوحداية ا، والثقافة الإيمانية في تصوّرنا لكلّ خطوط الإيمان به، وفي تصوّرنا لمسؤولياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية والحركية في كلّ مواقع الحياة، لأنّ القرآن يختصر لنا كلّ ما جاء به، وما جاء به هو «الحياة» (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَآ دَعَاكُمُ لِمَا يُحْيِيكُمُ) (الأنفال/ 24)، لما يحيي قلوبكم وعقولكم وحركتكم في الحياة. ولذلك، فإنّ ما جاء به القرآن هو «الدعوة إلى الحياة»، أن نعيش حياتنا، فإ تعالی لا يريد لنا أن نهمل حياتنا، ولكن أن نعيشها كما يجب لنا أن نصنعها وأن نحرّكها وأن نغنيها وأن نوجّهها، وأن نفتح كلّ آفاقها على ا سبحانه وتعالى، لتكون حياتنا كلّها ذكرا في الفكر وفي العاطفة وفي الحركة والممارسة والمسؤولية.